المحاضرة السادسة

التربية العلمية

لقد أتيت بحثي في التربية العقلية على كيفية إرهاف ذهن الولد وإعداده لتلقي العلوم والآن أبحث في كيفية تعليمه.

والفرق بين التربية والتعليم هو أن هذا قائم بتلقين الولد شيئا من المعارف بمقدار ما يتسع له عقله وتلك قائمة بإرهاف ذهنه شيئا فشيئا ليتهيأ ويستعد لقبول تلك المعارف؛ فالتعليم فرع من التربية لأنه مقصور على إمداد قريحة الولد بما يلائمها من العلوم.. أما التربية فتتناول ما فيه إنماء بدنه وتهذيب أخلاقه وتنوير عقله فكل من ربيناه فقد علمناه شيئا ولكن ليس كل من علمناه شيئا فقد ربيناه.

والتعليم يقسم إلى قسمين: التعليم البيتي، والتعليم المدرسية.. فلنبحث في كل منهما على حدة

المطلب الثالث عشر: تعليم الأطفال في بيوتهم

لا ريب أن الأم أفضل مدرسة أعدتها الطبيعة للولد لأنها ترافقه في زمن طفولته وهو الزمن الذي يكون فيه عقله أكثر مرونة وقابلية للتأثر بالتعاليم والإرشادات.

أجل أيتها السيدات أن بيتا يفهم من الأمهات أمثال حضراتكنّ فاضلات متعلمات هو أفضل من المدرسة لأن المدرسة تجمع مئات من

الصغار وكلهم على اختلاف مشاربهم وأمزجتهم وأميالهم يسامون لعناية معلم واحد قلما يكون أهلا لتعليم آحاد منهم فضلا عن الكثرة، وذلك لأسباب سأبسطها فيما بعد. أما الأم الحكيمة العاقلة فباستطاعتها أن تراعي طباع كل ولد من أولادها فتلقنه ما يوافق ميله وسنه واستعداده.

وأحسن واسطة لتعليم الأطفال هي التلقين الشفاهي على نحو ما تقدم لي بيانه في التربية الأدبية مع زيادة التبسط في شرح الأسرار الطبيعية والعوامل الجوية وسائر المحسوسات التي تقع تحت بصره وتجتذب اهتمامه للسؤال عنها.

وإذا أردنا أن نعلمه القراءة فبالطرق الحديثة المصطلح عليها الآن فإذا أحاكي معرفة صور الحروف نطقا ورسما فينتقل به إلى الكلمات المركبة من حرفين، فثلاثة كاسم الهر والكلب مع صورهما، ثم يتدرج إلى الجمل القصيرة التي تتركب منها هذه الأسماء ثم يتجاوز ذلك إلى قصص صغيرة سهلة المأخذ تتلى على الولد في ساعات الفراغ وتفسر له ألفاظها الكتابية بلغة عامية يفهمها، وبذلك تترقى لغته شيئا فشيئا بحيث يصير قادرا على تفهم اللغة الكتابية متى حان الوقت الذي يتعلم فيه بالكتب، وفضلا عن ذلك فإنه يجد في سماع تلك القصص الصغيرة لذة وفكاهة تنمي فيه قوة الملاحظة والتصور وتجعل فيه ميلا للمطالعة فيكتسب بذلك علماً وأدباً.

فإن رأت الأم أن تعلم ابنها شيئا من أركان على الحساب البسيط، فلتنتهز فرصة إعطائه بعض الثمار أو الحبوب فتجعله يعد ما معهُ ويضيف

إليه شيئاً ويسقط منه شيئاً ليعرف عدد ما يجتمع لهُ منها أو ما يبقي وبذلك يتوصل تدريجاً إلى تعلم علم الحساب.

ويحسن بالأم والأب أن يقرأ جهارا لدى أولادهما فصلا من كتاب مفيد كل يوم، وبذلك يعودانهم النطق على وجه الصحة والمحافظة على مخارج الحروف والأماكن التي يصح النبر فيها والوقوف عندها فإذا ما أصبح لأولادهما إلمام بالقراءة فينيطان بهم هذا الواجب مناوبة وحينئذ يحرصان على إصلاح خطأهم والاهتمام بتحسين نطقهم وإفادتهم عن مغزى ما يطالعونه في المصنفات الجليلة.

ومن الخطأ أن نخاطب أطفالنا بألفاظ وكلمات لا وجود لها في اللغة كالده للحار والدودة للعصفور والننه للحلوى أو نلثغ بالحروف ظناً أننا بذلك نسهل عليهم فهمها أو اعتقادا بأنهم لا يستطيعون فهم الكلمات الصحيحة، والحال أن الطفل يلتقط الألفاظ بالمزاولة وليس بالقوة العقلية فلا فرق عنده بين أن تكون صحيحة أو سقيمة بدليل ما نطالعه من نظم الأقدمين ونثرهم في حداثتهم وما نشاهده بين الأمم الأوربية الراقية من النطق المعادل بصحته للغة كتبهم وهو الأمر الذي حرمنا من نحن في العصور الأخيرة لما دخل على لغتنا من الحشو والركاكة والاصطلاحات الفاسدة بتقلب أحوالنا وامتزاجنا بالأجانب.

وقد تقدم في القول في المحاضرة الماضية بعدم إرسال الأولاد إلى المدارس قبل أن يتموا الحول السابع وذلك لأسباب أهمها أن أقسام الجسد تكون في السنين الأولي آخذة بالنمو السريع ولذلك يتحول إليها

أكثر أصول الدم وينصرف معظم قوى الجسد إلى الأعمال الغذائية فإذا أجهد العقل تحوّل قسم من هذه الأصول عن الأنسجة النامية واستخدم لإتمام وظيفة الدماغ فضعف الجسد وقل نموه هذا فضلا عن أن اجتماع الأولاد في محل واحد ساعات متوالية في كل يوم واستنشاقهم هواء غير طلق يعرضهم للأمراض والأسقام زيادة عن البالغين لأن سرعة النمو في الصغار ونشاط وظائفهم الحيوية تجعلهم أكثر قابلية للانفعال والتأثر، ولذلك أجمع الأطباء على وجوب راحة العقل في الأطفال لأن إكراه أدمغتهم على الأعمال العقلية تورثها تهيجا قد يعقبه متى خمد نقص في تكوينها أو تحويل في نشوئها أو تشويه قسم من أقسامها، وفي ذلك ما لا يخفى من الخطر على العقل والجسم معاً.

ولذلك لا ينبغي إرسال الولد إلى المدرسة إلا بعد أن يتم السنة السابعة وحينئذ لا يباشر تعليمه بالكتب بل بالتلقين الشفاهي إلى أن تنفد الأشياء التي يستطاع تعليمه إياها شفاها ومن ثم يبدأ بتعليمه على الوجه الذي سنبينه في الفصل القادم.

المطلب الرابع عشر: تعليم الأولاد في مدارسهم

إن غاية المدارس هي أولاً تقوية عقول الأولاد وأجسادهم لكي تصير قادرة على قضاء الأشغال والقيام بمهمات الحياة ثانياً تهذيب أخلاقهم وتثقيفهم بالعلوم والمعارف والآداب لكي يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع الإنساني. هذه هي الغاية التي يجب أن تنشأ المدارس من أجلها وليس إلقاء العلوم وتوفير أنواع الدروس لأن مجرد اكتساب

المعارف الكثيرة لا يقوي العقل ولا يزيد ذكاءه ولا يساعده على توخي السبل القويمة والأساليب الحسنة في الأعمال لأنه لا يربي فيه القوى اللازمة للتمييز والاستنتاج والحكم والاستدلال وامتلاك الأميال والاعتماد على النفس تلك القوى التي يتوقف عليها النجاح والفلاح في الحياة الدنيا، ولكي تقوم المدارس بتربية الأولاد وتثقيف عقولهم ينبغي أن تكون ذات رأس مال يمكنها دخله من الاستمرار على عملها فلا تتكل على ما تحصله من رواتب الطلبة إذ أن الرواتب لا تقوم بنفقاتها وأجور أساتذتها وإنما ذلك يقوم على أريحية الموسرين من محبي الخير ومعضدي العلم الذين يجهدون في سبيل نشر رايات المعارف ورفع شأن الوطن بما يبذلونه من أنواع المساعدة التي توفر للمدارس وسائل النجاح وتمكنها من تربية تلامذتها وتقوية أجسامهم وتثقيف عقولهم.

وقد أدرك الغربيون ذلك فنشطوا لمساعدة المدارس وعملوا على ترقيتها أو زيادة انتشارها فبذل الأغنياء أموالهم واستقطر الكتاب أقلامهم وأجهد رجال الأحكام عزائمهم في سبيل ناشئتهم وتهذيبهم وقد عنوا باختيار أساتذتهم من العلماء النابغين الذين يعتمد عليهم في تهذيب الأخلاق ويليق أن يكونوا قدوة للطلبة يقتدون بمحاسن صفاتهم ووافر أدبهم ومعارفهم ولا جرم أن من كان من ولايته أن يتعهد نفس الولد فضلا عن جسمه وتم بدرسه ولعبه وتهذيب أخلاقه وتقويم سيرته لمن الواجب أن يكون عظيماً بأدبه عظيماً بعقله وعلمه عظيم بفضله وحسن إرشاداته.

قال الإسكندر يوماً أنه وإن كان ابن فيلبس المكدوني جسماً فهو

ابن أرسطوطاليس نفساً لأنه إن كان فيلبس سببا لحياته فأرسطوطاليس هو الذي علمه كيف يعيش مكرما وما أحسن ما قال الشاعر.

أقـدم أسـتاذي علـى فضـل والـدي وإن كان لي من والدي الفخر والشرف
فـذاك مربـي الـروح والـروح جـوهر وهذا مربي الجسم والجسم من صدف

أما المدارس الشرقية فلا تزال في تأخر وانحطاط وماليتها في عسر وفاقة فيضطرها ذلك في الغالب إلى استخدام رجال غير أكفاء لمهنة التعليم الشريفة ممن يرضون بالراتب الزهيد ولكنهم يكونون بالحقيقة حجر عثرة في سبيل العلم والآداب بل صخرة ضخمة في ساحة التقدم والعمران لأن التلامذة يشبون على خطتهم الخرقاء ويستقون من سم مبادئهم العوجاء فضلا عن أنهم لا يستفيدون من تعاليمهم الفائدة المنشودة من المدارس بل جل ما يحصلونه مفردات علوم تحشى في أذهانهم حشواً كما تحشى الوسادة قشاً، فالولد الذي يتربى على هذا النمط يصبح وهو ابن خمس عشرة سنة المحجوبة زمانه ونابغة عصره حفظا لأنواع القواعد العامية والقصائد الشعرية يتلوها كالحاكي (الفونوغراف) فينتهج قلب والديه ويفتخر به أستاذه، ويترقب له الكل مستقبلا حسنا ولكنه متى نزل إلى ميدان الأشغال فقلما ينجح إذا فاته العلم الصحيح الذي يخرج الذهن وينبه الفهم ويجعل الرجل قادرا على إدراك معاني الحوادث وردها إلى أسبابها وتقدير عواقب الأعمال والتميز بين الفاسد والصحيح من الأقوال.

وقلما يكترث الناس عندنا لهذه الحقيقة، وقد ينسبون للعلم أكثر المضار التي تلم بالمتعلمين والحال أن الضرر يتأتى من كيفية التعليم لا من

العلم نفسه، والتعليم يقوم على أربعة أركان مهمة وهي (١) واجبات المدارس نحو المعلمين (٢) واجبات المعلمين نحو التلامذة (٣) واجبات التلامذة نحو المدارس (٤) واجبات الوالدين نحو الأولاد والمعلمين.

فواجبات المدارس نحو المعلمين هي أن تختار من الجهابذة أفراداً نبغ كل منهم في فن فيخصونه بتعليمه في مدارسهم مقابل راتب وافر يوازي أتعابه فيقتصر على تلقين ذلك الفرع في ساعات قليلة من النهار وما بنى من يومه يتفرغ فيه للمطالعة والتروي في الحقائق التي ينبغي أن يبثها في صدور الطلبة والأساليب التي يوافق سبك أفكاره فيها فإن الأستاذ لا يقوى على الوقوف نهاره بطوله أمام تلامذته بين إلقاء وسماع وحض وإرشاد وشرح وبيان لما في ذلك من التعب الذي يضعف صحته وعقله ويقهقر معارفه ويبعث به على الملل والضجر من تلك الحياة، وفي هذه الحال لا يتمكن من كثرة الشرح مع طول الأناة والنظر في مصلحة الطلبة على ما يقضي به الواجب.

ولا يكفي أن يكون المعلم ممن نبغوا في العلم واشتهروا بالفضل بل يجب أيضا أن يكون متضلعا بمهنة التعليم قدير على إيضاح أفكاره بأسلوب يسهل فهمه على الطلبة.

قال الدكتور شبلي شميل في مجموعته: "ينبغي أن يكون المعلمون من الذين تربوا جيدا وبرعوا في علم الأخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته وينبغي أن يكونوا أيضا من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابلية عقله ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في

الاستعداد الحسن، فإن عقولاً كثيرة من أذكى العقول ينطفئ نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة أميال العقل".

وواجبات المعلمين نحو التلامذة هي أن يقدروا القوة العقلية والجسدية لكل ولد فيعينوا له من الدروس ما يناسب حالة عقله وجسده ودرجة نموها، وأن يفرغوا الجهد في حض الكسلان على الدرس والاجتهاد باتخاذ الوسائط الناجعة لذلك، وأن لا يحملوا تفاوت بين التلامذة في المعاملة بل ينظروا إليهم بعين المساواة والتودد، وأن يكونوا لهم مثلا في المحافظة على الآداب والصدق واللطف والحزم والمحافظة على الوقت.

أما واجبات التلامذة نحو المدارس فمحصورة بطاعتهم لمعلميهم واحترامهم لقوانين المدرسة واجتهاده في دروسهم وإصغائهم لتعاليم أساتذتهم وإرشاداتهم مع المواظبة على الرياضة الجسدية والعقلية.

بقي واجبات الوالدين نحو المدارس فهذه تقوم بإطلاع المعلم على أخلاق أولادهم وسجاياهم ومعاينتهم تسهيلا لما يتجشمه في تهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم لأنهم لما كانوا أعلم الناس بما يلائم أولادهم وأكثرهم معرفة بحقيقة أخلاقهم وماهية استعدادهم كانوا أجدر بمعاونة المعلم على تربية أولادهم تربية حسنة، وعليه يجب أن يلاحظوهم بدقة واهتمام ويتبعوا خطواتهم حتى يتمكنوا بمعاونة المعلم من إصلاح حالهم وإرشادهم إلى السبيل السوي.

بقي من الواجبات ما هو مشترك بين المدارس والوالدين وهي الاهتمام بنظافة الأولاد وتعويدهم العناية بملابسهم وتقليم أظافره

وتحذيرهم من نقل الدراهم لما تحمله من الأقذار والجراثيم المرضية القتالة وحملهم على الإقلاع عن عادة لحس الأصابع التي كثيرا ما يعمد إليها الأولاد عند تقليب صفحات الكتب، وكذلك لحس الأقلام الرصاصية وقت الكتابة، ولحس الحبر عن الورق كلما راموا إزالة كلمة سطروها خطأ لما في هذه العادات من الأمور المنافية للذوق والأدب فضلا عن الإضرار بالصحة.

وأختم محاضرتي هذه بإيراد ملاحظة جديرة باهتمام الوالدين والمعلمين، وهي أننا نستعجل الولد بالنمو العقلي فإذا أنسنا منه مقدرة على حساب الأرقام مثلا فنأخذ بإلقاء الأسئلة عليه ودفعه إلى حل المشكلات منها ونبتهج كثيرة إذا رأيناه وهو ابن ثماني سنوات ملما بجداول فيثاغوروس، والحال أن الولد الذي يسرع نضج ذهنه قبل أبيه فإنه يفرغ ما في وطابه وهو حدث ثم يقف كالولد الذي تشب قامته قبل الوقت، وكثيرا ما يموت محتضرا، وإن عاش، عاش سقيما، وعلى الجملة فلا نترقب أن يكون الولد اليافع كالكهل قوة وعقلا كما أننا لا نرجو أن يبلغ حد الكمال المطلق أحد من الناس فإن الكمال لله وحده.